

رِحْلَةُ بَكْنَكْهَام

وصف بغداد

نقلها الى العربية :
محمد علي حلاوي

القسم الأول

تمهيد : - الفصل الذي يلي هذه الكلمة بعض الهنات التي حاولنا بيان وجه الصحة فيها منقول من كتاب (Travels in Mesopotamia) بما علقناه عليها من تعليقات تاريخية وأثرية .
للرحالة الانكليزي جي . اس . بكنكهام (J. S. Buckingham) وقد زار العراق في أوائل القرن التاسع عشر . ولم يكن بكنكهام أول من زار بلاد الرافدين وكتب عنها ، بل سبقه الى ذلك جماعة من الرحالين ، دونوا مشاهداتهم وانطباعاتهم في مؤلفات يستطيع المعنيون بشؤون العراق الرجوع اليها . وتعد بعض هذه المؤلفات مراجع نفيسة عن أحوال العراق الاجتماعية والسياسية والاقتصادية . وفي رحلة بكنكهام فصول ثلاثة عن بغداد حوت من الفوائد الجليلة ما سبراه القارىء ، وان وقع فيها

بما علقناه عليها من تعليقات تاريخية وأثرية .
هذا الكتاب الذي تترجم منه ما كتبه عن بغداد ،
سنة ١٨٢٧ . كما نشر بضعة تأليف أخرى
منها :
(Travels in Palestine and Counties East of Jordan).
(Travels Among the Arab Tirbes)
ولد بكنكهام سنة ١٧٨٦ ومات سنة ١٨٥٥ ،
وقد أمضى سنوات عدة من عمره في أقطار الشرق
فزار العراق وسوريا وتركيا وايران والهند وغير
ذلك من البلدان التي عنى بوصف شعوبها وأحوالها
في المؤلفات التي ألغنا اليها .
(المترجم)

٢٠ تموز ١٨١٦ : - ان ما لقيته في دار المستر ريج وعقلته انساني ما لقيته في طريقي الى بغداد من صعوبات ومضايقات • فقد كان الجو رائعاً والمحيط الذي دخلته فاتناً ، واستمتعت اياماً متواصلة قبل ان تستيقظ في نفسى الرغبة وحب الاستطلاع الملازمة في زيارة مدينة كبيرة شهيرة •

واستفدت هذا الصباح من بعض رجال المقيم العام حيث رافقتهم على ظهور الخيل الى خارج المدينة مجتازين الباب الجنوبي الشرقي فدرنا حول اسوار المدينة وعدنا من الباب الشمالي الغربي الذي يخرج منه الى الموصل • أما بقية النهار فقد جعلته وفقاً على ما في داخل المدينة برفقة أحد أدلاء المقيم ومن هذه المشاهدات وما استقيته من مصادر أخرى أورد الخلاصة الآتية وهي ان لم تكن صورة كاملة الا انها آمنة صادقة كتبت باعتبار : -

تقوم مدينة بغداد في سهل مستوي على الضفة الشمالية الشرقية لنهر دجلة وهي من احد جوانبها تحاذي النهر (١) • والمخطط الذي أورده نيهـر (Niebuhr) ظهر لي انه دقيق بوجه عام من حيث شكل المدينة وامتداد ضواحيها •

وفي سور مدينة بغداد من المعالم ما يدل على تجديده وصيانه في أوقات مختلفة على ما هي الحال عليه في الأبنية الاسلامية • وأجل ما فيه أقسامه القديمة ، أما الحديثة فأقل شأنًا من حيث البناء • وسور المدينة مبنى كله بالطابوق وهذا الطابوق يختلف باختلاف الزمن الذي بني فيه •

(١) تقوم مدينة بغداد على جانبي دجلة فهي قسمان شرقي وغربي وكلاهما يطل على النهر (المترجم) •

وللمدينة ثلاثة أبواب (٢) أحدها في الجنوب الشرقي والثاني في الشمال الشرقي والثالث شمال غربي المدينة • وهذا الباب الاخير هو الرئيسي ويتصل من مختلف الطرق ويؤدي الى القسم المأهول ومركز الاعمال في المدينة وفي خارج هذا الباب ساحة للعبة الجريد التركية • وفي المدينة على بعد قليل من الباب الشمالي الغربي السوق الكبير وقصر الباشا • ويحيط بالسور خندق جاف ذو عمق لا بأس به وهو عبارة عن اخدود وانخفاض بلا تحديد أو تخطيط •

وأحسن ما تبقى من أقسام السور القديمة : البرجان اللذان لا يبعدان كثيراً عن الباب الرئيسي وهما في الحقيقة رائعان • فالطابوق الاصفر اللون والدقة والتناسق الظاهران عليه يضاحيان ما رأيت

(٢) كان يحيط بالجانب الشرقي من بغداد سور عظيم يكتنفه خندق وفي السور اربعة ابواب : الباب الشمالي (باب السلطان) وهو باب المعظم الآن ، ويليه باب الظفرية (الباب الوسيطاني وفيه اليوم متحف الاسلحة) ، ويليه باب الحلبة (باب الطلسم وقد نسفه الاتراك سنة ١٩١٧ حين خروجهم من بغداد) • اما اقصى الابواب جنوباً فهو باب كلواذي وعرف أيضاً بباب البصلية لقربه من المحلة التي بهذا الاسم وسمى في الازمنة الحديثة بالباب الشرقي وقد نقض قبل سنوات [بلدان الخلافة الشرقية تأليف لسترنج وترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد • حاشية بالصفحة ٥٠] •

من الابنية الاسلامية القديمة المشيدة بالطابوق • والكتابات الطويلة التي في أعلى هذين البرجين نقشت على نسق الخط العربي القديم • وقد اتضح لي من نص الكتابات انها هي التي أستسخنها نيهير من أحد البرجين ويؤخذ منها ان الخليفة الناصر [لدين الله العباسي] شيدها عام ٦١٨ للهجرة (١٢٢١ م) • وفي خارج السور لا يرى الناظر في امتداد المدينة من الجهة الشمالية والشرقية سوى بسيط من الارض مقفر لا أثر للحياة فيه • ولكن الرائي يشاهد بين حين وآخر عند الطرق التي تقطع هذا السهل وتفضي الى الداخل جماعات من راكبي الخيل أو بعض الدرك تروح وتجيء من المدينة خلال ساعات النهار •

وداخل المدينة لا يتم عما أشتهرت به مدينة بغداد من عظمة وجلال وثروة بكونها عاصمة شرقية • فقسم كبير منها غير مبني لا سيما القسم الشمالي الشرقي وحتى الأقسام المأهولة التي ترتفع فيها الابنية قرب النهر حيث تكثر الأشجار ، ترى المدينة وكأنها قائمة وسط غابة على ما كانت عليه بابل حسبما يظن ولاية مسورة أكثر منها مدينة قائمة بذاتها •

وجميع أبنية المدينة مشيد بالطابوق الاصفر المضارب الى الحمرة وهو صغير الحجم دائري الزوايا مما يدل على استعماله مرارا من قبل ، فهو يؤخذ من خرائب أبنية ليشيد به ثانية وفي حالات قليلة جداً يرى طابوق جديد كما يدل مظهره الخارجي •

وشوارع بغداد ضيقة وغير معبدة كسائر مدن الشرق ترتفع على جوانبها الجدران ونادراً ما يرى شبك مفتوحاً وابواب الدور صغيرة وضيقة

والشوارع معقدة وملتوية أكثر من شوارع المدن التركية الكبيرة ، واذا استثنينا شوارع الاسواق المستقيمة نسياً وبعض الميادين المكشوفة ، الفينا داخل المدينة لا يتعدى أزقة وممرات ضيقة •

وبناء السراي ، وهو قصر الباشا ، تبدو عليه السعة أكثر من أن يكون بناية شامخة وهو يقع في شمال شرقي المدينة ولا يبعد كثيراً عن شاطئ دجلة • وفيه أكثر دواوين الحكومة وهو بناء حديث بعض الحدائث ، ويشتمل على مبان إضافية بنيت في أوقات مختلفة وهو في جملة غير متسق ولا يوحى بجمال الفن المعماري •

أما الجوامع فهي دائماً العلامات المميزة للمدن الاسلامية وهي مشيدة بطراز يختلف عن المتبع في تركيا والثابت ان أقدم هذه الجوامع هو جامع سوق الغزل (٣) وقد اطلق عليه هذه التسمية لوقوعه في سوق يباع فيها الغزل القطني •

ويبدو أن بناية الجامع الاصلية قد دمرت ولم يبق منها سوى المنارة القائمة وبعض الجدران الخارجية • والمنارة قصيرة (٤) غليظة فهي عمود تقبل غير متناسب الاجزاء ، مبنية بالطابوق المتقاطع تقاطعاً رأسياً وهو مختلف الالوان كمنارة الجامع الكبير في الموصل • وحوض المنارة ومنه يدعى الناس للصلاة يبدأ من تحت مركزها الوسطى ثم يرتقى في سلسلة من المشكوات المقوسة ينحدر منها زخارف مقرنصة حتى يبلغ ثلثي ارتفاع (٣) كان هذا السوق مكتظاً عند مروري

ببائعات الغزل اليدويات الامر الذي جعل مشاهداتي للجامع منقوصة ومضطربة • (٤) هذه المنارة أعلى المنائر في بغداد ، وارتفاعها ٣٥ متراً (المترجم) •

أما سوق (البرازين) أو سوق (الموسلين) الآخذ من شارع يؤدي من هذا الجامع ، فإنه يرجع الى نفس العصر وقد لاحظت امرأ في هذا السوق لم أشاهده من قبل ذلك أن في هذا السوق مجموعة من الكتابات العربية القديمة فوق كل دكان بحروف كبيرة منحوتة بدقة واعتناء بالغين مما يعث على الاعتقاد ان الكتابات قديمة قدم السوق نفسه . أما ماهية هذه الكتابات فلم تيسر لنا معرفتها لعجلتنا في التجوال ، فلم نعلم ما اذا كانت تشير الى صاحب الدكان الذي انشأها أم عبارات دينية أم انها تشير الى تاريخ التأسيس .

ونظير هذين الجامعين : جامع الحاصكى ولم يتبق من صرحه القديم الا القليل ومنها محراب الصلاة الرائع (٧) . وعامة المحاريب بسيطة وغير مزخرفة وهي توجه المصلين نحو الكعبة في مكة وأريد بها أيضاً الايضاح عن الفكرة القائلة بعدم امكان رؤية الخالق بخلاف ما كانت عليه معابد الوثنيين التي تحتلها التماثيل والاصنام . ومحراب هذا الجامع المقعر متوج بقوس روماني مقام على عمودين صغيرين محززين تحزيزا حلزونيا ومتوجة بزخارف نباتية قائمة على قواعد مربعة الشكل . وحول القوس بين العمود والعمود حاشية منحوتة تشبه النصب الرومانية المسماة بمقابر الملوك في القدس على باب القصر الروماني في (Konnawaught) في سهول حوران

« شارع الرشيد » فلم يبق في البناء الاصلى سوى المدخل الذي وصفه الكاتب ، اما الكتابات المقتلعة فقد نقلت الى دار الآثار (المترجم) .

(٧) والمحراب معروض الآن في متحف القصر العباسي ببغداد (المترجم) .

المنارة ، ثم يفتح تدريجياً نحو الخارج وينتهي بحوض المنارة المذكور وما فوق ذلك قصر ينتهي بقمة دائرية . وهذه المنارة دون منائر سوريا ذات الطراز التركي وأقل شأنًا بكثير من المنائر الايقية المتناسقة التي تكثر في أنحاء مصر . وظاهر المنارة يدل على أنه عانى تخريباً ، أما الاجزاء المتبقية منه فتشير إشارة واضحة الى أنها كانت تزدان بزخرفة عربية ، ويؤخذ من الكتابات التي استسخها أحد الشيوخ لسيهر ، ان المنارة شيدها الخليفة المستنصر [بالله] سنة ٦٣٣ (٥) للهجرة أو ١٢٣٥ للميلاد أي بعد أربعة عشر عاماً من تاريخ البرج في السور الخارجي وقد مر وصفه .

أما جامع مرجان ، وهو لا يبعد كثيراً عن جامع سوق الغزل ، ففيه مخلفات وآثار مزخرفة على الطراز العربي القديم . وبنائوه حديث وداخله ساذج غاية السذاجة ولكن مدخله رائع حقاً . ويتألف من قوس عال مدبب يحف به من الجانبين مجموعة من الزخارف العربية النفيسة ترتفع الى الاعلى وتلتقي عند القمة فيتكون من ذلك قوس ، ويلى هذه الزخارف التي على الجانبين عمودان كبيران لا يلتقيان في القمة محززان بشكل حلزوني وعلى الاجزاء البارزة من هذه الحزوز زخارف دقيقة الصنع وهناك كتابات كثيرة تستغرق أسابيع لمن أراد استنساخها (٦) .

(٥) ان المنارة القائمة اليوم جدد بناؤها في سنة ٦٧٨ هـ (١٢٧٩ م) على ما جاء في الكتاب المسمى بـ « الحوادث الجامعة » ص ٤٠٨ . وقد رمت مديرية الآثار القديمة العامة هذه المنارة في السنوات الاخيرة . (المترجم) .

(٦) وقد قلعت كتابات هذا الجامع في السنوات الاخيرة حينما هدم في سبيل أن يستقيم

وغيرها من المعابد الرومانية والكنائس المسيحية الاولى كما جاء وصفها في رحلة لي في شرقي سوريا . وهناك صفة اخرى يمتاز بها هذا المحراب ذلك انه شبيه بما رأته في تدمر وبعثك أكثر مما رأيتها في عجلون وجرش ، والظاهر أنه يتسم بالذوق الروماني لا العربي . وتذكرت بهذه المناسبة المحراب الذي تشبه قمته المروحة

الواقع خارج مدخل القلعة الكبيرة في بصرى من أعمال حوران ، والمستعمل الآن من قبل المسلمين القاطنين في تلك المدينة الاثرية للصلاة لتوجهه رأساً الى الكعبة . وخيل الى بادىء ذي بدء انه ثكنة عسكرية رومانية حولت لاستعمالها للغرض المذكور ، ولكن هنالك من الاسباب القوية ما يحمل على الاعتقاد ان القلعة من صنع عربي قام على انقاض مسرح روماني ، وتلك الثكنة المزعومة ما هي الا محل للصلاة ذو محراب على شكل المروحة على غرار محراب جامع الحاصكي في بغداد ، وفي مركز المحراب مجموعة من الزهريات والازهار المنحوتة بدقة عظيمة على مرمر أبيض معرق رائع .

أما ما في داخل المسجد من منحوتات فتبدو عليها الحدائث بالنسبة الى البناء الاصلى وهي بسيطة ساذجة جداً بالرغم من وجود كتابات عربية بالحروف المستقيمة وواحدة بالحروف الفارسية المعرجة .

ويبدو ان المنارة شيدت في القرن الخالى وهي لا تدل على روعة في بنائها ويزين ظاهرها زخرفة اعتيادية من الكاشي الاخضر والازرق وغيره من الالوان المتداخلة مع طابوق المنارة .

أما جامع الوزير فيقع قرب دجلة على بعد بضعة ياردات من باب الجسر ، وله قبة جميلة ومنارة عالية . ويقوم الجامع الكبير في ساحة الميدان على الطريق من الباب الشرقي الشمالى الى قصر المقيم البريطاني وهو بناء عظيم ، أما سائر الجوامع التي لم نذكر أسماءها فهي بالقياس الى ما سبقت الاشارة اليه أقل شأناً .

وقباب بغداد ذات مسحة فارسية والفرق بينها وبين قباب تركيا وسوريا من حيث الهيئة والطرز كان أولى الصفات المميزة التي استرعت انتباهي عند دخولي المدينة . وهنالك قبتان أو ثلاث مسطحة وغير مزخرفة لا أهمية لها . ولكن القباب الرئيسية جميعها عالية وضيقة وارتفاعها يزيد على طول قطرها بنحو النصف ، وهي غنية الزخرفة بالكاشي المزجج والرسوم ، أما الالوان السائدة فهي الابيض والاخضر وبعض الكتابات التي تطوق قاعدة القبة هي الاخرى مزخرفة على هذا النمط . واشتاع هذه الالوان المعكوسة من على سطح القبة تبعث في النفس الانشراح والسرور أكثر مما تنطوي على العظمة والجلال . وعلى الرغم من ان كل تجديد مفاجيء متبول بصورة عامة الا ان تلك القباب الفارسية سواء من النظرة الاولى أو بعد زيارات متكررة ، ظهرت لي انها أقل شأنًا بكثير من قباب مصر لا سيما قباب مقابر المماليك في القاهرة .

والمناير المزخرفة والمزينة بالالوان لا يمكن أن تقارن ببعض المناير الجليلة في ديار بكر وحلب ودمشق ، ولا بالمناير الانيقة في بعض المدن الكبيرة على ضفاف النيل .

ان القصبان الحضر (الاميال) التي تعلو قباب

سوق يمكن ان يقارن بأحد الأسواق المجاورة لحان الكمرك في أورفا . بل ان أحدث خان بني مؤخرأ أحسنها وأوسعها حيث يضم عدداً كبيراً من البائعين والتجار قد ظهر مع ذلك حقيراً عديم الشأن وذلك ما لم أره في المدن التركية الكبيرة .

والحمامات أحط بكثير من حمامات بلاد الرافدين الكبيرة التي زرتها حتى الآن ويقال ان عددها يتعدى الخمسين حماماً ، ويوم وصولي بغداد قصدت أحسنها وكانت واسعة مجهزة بماء كافي ، ولكن جدرانها عارية الا من بعض الكاشي المزخرف بالطيور والازهار قد تآثر هنا وهناك ، ومنظره الداخلي يوحى بالكآبة والتجرد . والمشرفون على شؤون الحمام تنقصهم البراعة والمباقة التي يتمتع بها المصريون والدمشقيون ، وحكمي هذا يستند الى اني استصحت أثناء زيارتي أحد خدم المستر ريجج ولهذا عوملت بمتهى الاحترام

والرعاية من قبل صاحب الحمام ومساعديه ، وبالرغم من هذه الظروف فقد كان الانحطاط وعدم اللياقة ظاهرين للعيان فما عسى ان يكون عليه الامر لو كانت الزيارة في ظروف اعتيادية .

ولم أر من بيوت المدينة الا قليلاً باستثناء الجدران الخارجية والشرقات ، ومما لفت نظري اني لم الاحظ في جميع ارجاء هذه المدينة النواصة أقواساً مستدقة الرأس على مداخل ابواب بيوت السكنى فجميعها اما دائري أو مسطح يعاود طابوق صغير الحجم ، وحتى تلك الاقسام ذات الاقواس المستدقة من الأسواق القديمة والجوامع الاثرية فانها أقرب الى الطراز القوطي Gothic منها الى الطراز العربي الشائع الذي سبق ان

بغداد ومنايرها والتي يستقر عليها الهلال كما تظهر في المشاهد الشرقية على المسرح الانكليزي ، غير شائعة في الاجزاء الاخرى من تركيا . وعدد جوامع مدينة بغداد يربو على المائة حسبما يظن ولكن الجوامع التي تمتاز بمنايرها وارجائها لا تزيد على ثلاثين والبقية لا تعدو أن تكون مزارات مقدسة ومقابر يلجأ اليها الناس للصلاة . اما الخانات العامة أو النزل لميت القوافل فيربو عددها على ثلاثين وهي من حيث البناء دون خانات ديار بكر واورفا . ومن هذه الخانات خان الاورتمة (٨) وهو يمتاز بأقواسه الكبيرة والصغيرة المقرنصة على نحو خانات الموصل والبناء الخارجي يدل على مدى قدمه ، وهو مبني بالطابوق المسود والجص ومزخرف بالفن المعماري العربي والتركي على شكل مقرنصات تتدلى على مشكاواته .

والأسواق عديدة ومعظمها طويل ومستقيم نسبياً وأحسنها معقود بالطابوق ولكن عدداً كبيراً منها مغطى بالواح تمتد فوقها لتسند السقوف المصنوعة من سعف النخيل وجدوعه الجافة . والدكاكين مليئة بالبضاعة الهزلية . وتوقعت ان أجد الأسواق احسن أقسام المدينة ولكنها ظهرت أحط بكثير من جميع تلك الاقسام . وليس في أرجاء المدينة

(٨) هذه اللفظة تركية ومعناها المعتود لانه مشتق بعقادة كبيرة ولم يكن هذا الخان في أيام انشائه خاناً على نحو ما صار اليه في العصور الاخيرة ، وانما كان بناية ملحقة بالمدرسة المرجانية . راجع عن هذا الخان « دليل متحف الآثار العربية في خان مرجان ببغداد » وقد طبعته دار الآثار العراقية في بغداد سنة ١٩٣٨ (المترجم) .

الكبيرة في الانبراطورية • ولم أر هنا أثر الممالك
الشائع في مصر بين الخيالة التركية كما لم أر أيضا
السروال الكبير المستعمل في استانبول اللهم في
النادر • والعمائم نادرة بل لا يستعملها الا تراك
العثمانيون في بغداد • ولباس الرأس (القاووق)
أعلى واضيق شكلاً من عمائم استانبول ويلف
حولها بطريقة خاصة عند القاعدة قماش موزلين
مذهب • وفي فصول الصيف تلبس السراويل
وانحية والعباءة المنسوجة من المرعز الانقري
الطويل الشعر • وملابس أهل بغداد بوجه عام
بسيطة بالقياس الى ملابس بقية الآسيويين •

وازياء التجار عربية صرفة ، وهي احسن من ازياء
عرب الصحراء بعض الشيء • فينسج من القطن
الهندي : القفطان ، ومن المرعز الطويل الشعر :
الرداء الخارجي ومن المسلمين ما يلبس على الخصر
والرأس • والعمامة البيضاء شائعة في بغداد كل
الشيوع وتلبسها الطبقة العامة رمزاً لايمانهم •

اما ازياء اليهود والنصارى فهي على نحو سائر
انحاء تركيا ، تتألف من قباء اسود وشال كشميري
أو موسلين أزرق للعمائم • والفرس يحافظون على
لباسهم الفارسي الخاص وهم يميزون لأول وهلة
عن باقي الطبقات • وعرب الصحراء معروفون
بكوفياتهم وعباءاتهم الصوفية الكبيرة وخناجرهم
المقوسة (الجنية) •

ولباس النساء في بغداد حقير كالمستعمل في
أفقر قرى بلاد الرافدين ، والنساء من جميع
الطبقات يتجلبن برداء أزرق شبيه بلباس
الطبقات الدنيا في مصر وتتسدل على وجوههن قطعة من
القماش الرقيق الشفاف ، واما نساء المناطق المجاورة

شاهدته في الموصل • ولهد فان بغداد لا يمكن ان
تكون مصدر الفن المعماري العربي الذي يحتمل
ان يكون قد نشأ وتطور بعيداً في الغرب (٩) •
وتتألف الدور من سلسلة غرف تطل على ساحة
الدار الداخلية ، وما تحت سطح الارض من غرف
تسمى المراديب ، ويلجأ اليها الناس خلال أيام
الحر القائضة • وتستعمل السطوح ليلاً للنوم • ومن
سطح دار المستر ريج ذى الاقسام العديدة ، ولكل
قسم منه درج خاص به لل صعود والنزول ، نستطيع
ان نرى منظر مدينة بغداد واهلها نائمين على سطوح
بيوتهم •

اما نفوس بغداد ، فيقدرون بين خمسين الف
ومائة الف نسمة وهي أقل شأناً من مدينة حلب
وأكثر من مدينة دمشق • ويحتمل ان تكون
الثمانون الف نسمة رقماً أقرب الى الحقيقة •
والموظفون الرئيسيون في الادارة المدنية

والعسكرية من العوائل العثمانية أو من أتراك
استانبول ومع ذلك فان معظمهم من أبناء البلد
الاصليين • اما التجار والباعة فمن أصل عربي •
وعامة الناس من الترك والعرب والفرس والهنود
بنسب مختلفة • وهنالك اليهود والنصارى الذين
يحافظون على طابعهم الخاص • أما غرباء المدينة
فهم من الاكراد والفرس وأعراب البادية وهم
يشكلون عدداً لا بأس به •

ويختلف لباس أتراك بغداد عن لباس مواطنيهم
الشماليين بكونه أقل بهرجة وروتقاً ، كما ان
خيلهم وسلاحهم دون ما يستعمل في سائر المدن

(٩) ان هذا الموضوع شائك ويكتنفه
الغموض وهو موضوع طريف للبحث والتدقيق
لرجال الفنون المعمارية البارزين واصحاب الذوق •

اختياره من ممالك جورجيا ولا يستطيع الا
مركزه الا بعد ان يحصل على تأييد أقوى الاحزاب
أو الجماعات في المدينة ومعاضدتها على الرغم من
صدور فرمان بحقه من السلطان الذي هو اسماً
رئيس الانبراطورية • والوالي الحالى هو سعيد باشا
(اسعد) من مواليد بغداد ، ويعتبر تعيينه شذوذاً
عن القاعدة لان جميع الولاة السابقين من مواليد
جورجيا ، ووالد اسعد باشا هو سليمان باشا وكان
من مواطني جورجيا ذا سلطان قوى • وعدد
الممالك يزداد سنة بعد سنة بنزوح جماعات كبيرة
منهم الى هذا البلد لأن جميع المناصب الرابحة
ومناصب القيادة في الجيش محصورة بهذا الجنس
على الاطلاق • ونساء الحريم الجميلات في بغداد
كلهن من جورجيا ويسمح فقط للمسلمين بامتلاك
الجواري البيض واما الجواري السود فلغيرهم •
والمؤمنون وحدهم يتمتعون بجمال الجورجيات
(السكرجيات) والجركسيات وعلى الكفرة
والمشككين ان يقنعوا انفسهم بالجمال الاسود
الوارد من نيجيريا والسودان ومدغشقر •

ويمتد سلطان اسعد باشا من البصرة جنوباً الى
ماردين شمالاً ومن حدود فارس وتركتان شرقاً
الى حدود سوريا وفلسطين غرباً وهذه هي الحدود

لتقوية سلطانهم وللقضاء على (الينكجيرية)
وتحكمتهم بالولاة وبالذولة ، فتمكنوا من هذه
الادارة ، الا ان السلطة حولت اليهم • ذاق الممالك
حلاوة الحكم وشعروا بالقوة فخلفوا اسيادهم في
سلطانهم ولم يحصل من التبدل الا أن يعلنوا
ادارتهم • ارغموا الدولة على أن تصادق على الامر
الواقع • وتسلبوا على الاهلين فأذعن العراق
بالطاعة • وقد دام حكمهم من ١١٦٢ هـ الى
١٢٤٧ هـ [تاريخ العراق بين احتلالين لعباس
العزاوى الجزء السادس ، ص ٤] (المترجم) •

اللائى يحشدون في الاسواق لبيع ما يتجنه ،
فلا يضعن على وجوههن ذلك الحجاب بل يسدلن
على رؤوسهن قماشاً قطنياً أحمر أو أصفر ،
ووجوههن مكشوفة ما عدا الشفتين فتغطى احياناً •
والنساء البدويات يخضبن شفاههن باللون الازرق
مع بعض الخطوط والعلامات (الوشم) على أقسام
مختلفة من وجوههن ، ويلبسن الاساور الثقيلة
والحلاخل ، ويزينّ الانف بخزانات كبيرة وهي
قطعة صلبة مسطحة أو دائرية من الذهب تعلق
في احد المنخرين وهي تشبه شكلاً وحجماً الازرار
المموهة بالذهب المعلقة على ألبسة ايام الاحد
لفلاحت الانكليزيات •

اما حكومة بغداد فمناطة بالباشا يساعده
مجلس • وبالرغم من ان الباشا يتسلم تعيينه في
منصبه من سلطان استانبول ، الا ان دخوله المدينة
واستبقائه السلطة يعتمد على موافقة عامة ، ولا يعبر
عن الرغبة أو الموافقة بالتصويت كما هو الحال في
أوروبا بل يتم في صخب شأن الاحزاب في الحكومات
الدكتاتورية حينما ترغب في اظهار أميالها
ورغباتها • ومجلس الباشا يتألف من عدد من كبار
ضباط الدولة وعدد من رؤساء دوائر الحكومة
يجتمعون في ايام الجمع في الديوان الكبير للتداول
ومناقشة القضايا الهامة ، ويؤخذ رأيهم في الامور
التي تترتب عليها نتائج خطيرة ، اما مجرى الاعمال
الاعتيادية فيسيردون تدخلهم •

وكانت حكومة بغداد منذ عدة قرون خلت ، من
الممالك (١٠) بصورة مطلقة والباشا نفسه يتم

(١٠) « استعان الوزير حسن باشا وابنه
أحمد باشا بالممالك (الكولات) فأكثروا منهم

المنسوج من شعر الماعز الذي يرتديه البدو والستر التي يبيعها حرس المستر ريج الهنود عند استلامهم مخصصات الملابس السنوية الجديدة • اما اسلحة هذه القوات المبرقشة فهي السيوف والبنادق الانكليزية الصنع في الغالب وتدخل بغداد عن طريق دجلة من البصرة حيث ترسو البواخر الآتية من الهند •

وهناك بعض القبائل العربية الكبيرة المجاورة لبغداد التي تتقدم بالمساعدات العسكرية لدى الطواريء • وبعض الرجال من العرب يستخدمون لقاء اجر زهيد • وباشا كردستان علي وئام مع باشا بغداد رهو على استعداد لتجهيزهم بخمسة او ستة آلاف فارس اذا دعت الحاجة • وبذلك يمكن جمع عشرين أو ثلاثين الفاً من المجندين غير المنظمين للخروج للحرب أو للدفاع عن المدينة •

وتجارة بغداد تشتمل في الغالب على البضائع والمنتجات الهندية التي تصل عن طريق البصرة من البنغال وتحمل منها الى سوريا ونجد وكردستان وارمينيا وآسيا الصغرى (١١) •

ولقد قيل ان عدد البواخر التي تحمل العلم البريطاني ارتفع في العشر السنين الاخيرة من اثنين الى ستة باستثناء البواخر التي تحمل الالوان العربية ويرى المطلعون على هذا الموضوع ان ليس هناك في ارجاء الانبراطورية مثل هذا الجزء حيث يتمتع الناس فيه بقسط اوفر من الحرية وحيث تقل تبعاً لذلك التقييدات والاعباء المفروضة على

(١١) بغداد التي اطلق عليها ماركو بولو (Baldachi) اطرى سعة تجارتها وثروتها وصناعتها وقد كانت في ايامه أكبر شأنًا وارفعا مما هي في الوقت الحاضر •

الشككية لأراضي الباشا ولكن سلطانه الفعلي لا يمتد الى هذه الارحاء ولا سيما في الشرق والغرب لأن رؤساء الاكراد المستقلين وشيوخ العرب يتحدون سلطانه •

وتعتبر بغداد من المدن الكبيرة على حدود الانبراطورية التركية تجاه بلاد فارس وبالرغم من ضعف تحصيناتها اذا قورنت بالمدن الاوربية في مثل موقعها ، فانها قد افلحت في صد اعتداءات الفرس ، كما انها في مأمن من الوهابيين وهم أكثر العرب قوة وسلطاناً •

وقوات الدفاع تكون في ضمن المدينة • والباشا لا يتسلم معونة ما من استانبول شأن كافة أمور حكومته ، وهو بذلك مستقل تماماً عن السلطان وتتألف قواته من نحو الالفين من الحياالة المختلفي المعدات ومن عدد قليل من مدفعية الميدان لا تجارز العشرة قطع ، والمشاة الذين يرافقونه كحرس خاص لا يربو عددهم على الالف •

ولا شأن الجنود المشاة في تركيا وكذلك في بغداد ، وهم يتألفون من فضلات طبقات المجتمع ولا يسمح للفرد من ذوى الاخلاق المنحطة جداً بالانخراط في هذا السلك • وراتب الجندي ثلاثة قروش ويتوقع منه ان يجهز نفسه بكافة ضروريات الحياة بهذا المبلغ •

والصفات المميزة للملابسهم هي قبعة الفرو على شكل نصف دائري تحشر في الرأس • وقطر بعض هذه القبعات ثلاثة اقدم مغطاة الجوانب بفرو بنى اللون ورأس هذه القبعة بحري احمر ، ويظهر ان اللباس هذا هو الوحيد الذي تجهزهم الحكومة به • ولقد رأيت مختلف الالبسة منها القميص البنى

التجارة •

حمولتها بين العشرين والخمسين طناً مزودة بالسوارى والاشرعة لاستخدامها اذا استعفتهم الريح ، وفي الفصول الملائمة عندما تسود الريح الشمالية تستغرق الرحلة من بغداد الى البصرة سبعة أو ثمانية أيام ، ولكن في الاجواء الهادئة تقطع القوارب نفس المسافة في عشرة أو خمسة عشر يوماً على الرغم من مساعدة التيار ، ويلجأ الى جر السفينة الصاعدة الى بغداد على طول الشاطئ في أغلب الاوقات وتستغرق من الوقت لاكمال الرحلة من البصرة الى بغداد ثلاثين بل أربعين يوماً •

والقوارب الصغيرة التي تحمل المؤن والفواكه الى المدينة دائرية الشكل مصنوعة بهيئة القفة ومكسوة بجلد الماعز وهي نفسها التي كانت تستعمل في الايام الموعلة في القدم (١٣) •

وتجهز المدينة بمياه الشرب من دجلة ويحمل ابناء الى البيوت في قرب من جلود الماعز على ظهور الحيوانات وهي نفس الطريقة التي تسقى بها القاهرة من نيل مصر • فان مستودعات المياه والاحواض والانابيب غير معروفة هنا •

وقيل ان الباشا في هذه الفترة كان فقيراً حتى انه اضطر الى أن يستدين خمسة وعشرين ألف قرش من تجار بغداد بمبالغ صغيرة من كل واحد منهم ليسدد مخصصات رجال جيشه الجورجيين بمناسبة احتفالات رمضان • اما التبرعات التي تؤخذ عنوة كهدايا ، وهي شائعة في ارجاء تركيا ، فلا تفرض هنا الا نادراً ، ومتى حدثت فانها تفرض

(١٣) انظر وصف هذه القفف في كلام

هيرودوتس على بابل •

والمواصلات بين بغداد والبصرة هي عن طريق القوارب في دجلة وان كان سابقاً عن طريق الحلة على الفرات الا ان ذلك الطريق غير مأمون الان لوجود قبيلة كبيرة تحتل الضفتين دأبها السلب والنهب (١٢) •

والسفن التي تنقل البضائع الى بغداد تتراوح

(١٢) كانت التجارة بين بغداد والبصرة عندما كتب روالف (Rauwolf) كما توضح الفقرة التالية : « في هذه المدينة مستودعات كبيرة وهي بالنظر الى موقعها تخزن فيها البضائع التي تجلب عن طريق البر والبحر من مختلف الارحاء ولا سيما من الاناضول (Natolia) وسوريا وارمينيا واستانبول وحلب ودمشق ، لتحمل منها الى الهند وبلاد فارس • وحدث عند وجودي هنا في اليوم الثاني من كانون الاول سنة ١٥٧٤ ان وصلت خمس وعشرون سفينة موقرة بالتوابل والعقاقير النفيسة المجلوبة من الهند عن طريق هرمز الى البصرة (Balsara) ، وهي مدينة تعود الى السلطان التركي ، وتقع على الحدود الجنوبية الشرقية على بعد ستة ايام من هنا حيث تفرغ حمولتها في سفن صغيرة لجلبها الى بغداد • وقد قال احدهم ان الرحلة تستغرق اربعين يوماً • ولما كانت طرق النقل البرية والبحرية تخترق تخوم وارضى ملك العرب (King of Arabia) وشاه الفرس (Sophi of Persia) حيث المصدن والقلاع المشيدة على الطريق فقد ارتوى قيام مراسلات بينهما • وهم يحتفظون بالحمام الزاجل في البصرة لترسل وقت الحاجة الى بغداد حاملة الرسائل • وعندما تفرغ السفن حمولتها من التوابل في بغداد لتحمل منها الى تركيا عبر الصحراء يعمد التجار المعنيون بالامر الى ضرب خيامهم خارج طيسفون حيث يضعون بضائهم من التوابل في أكياس تحت الخيام الا أن يشكلوا قافلة فيخيل للرأى من بعيد انهم جنود وليسوا بتجار هدفهم السلاح لا البضائع وهكذا خيل الى حتى اقتربت منهم وشممت رائحة التوابل »

[ص ١٤٥ - ١٤٦] •

على موظفي الحكومة الكبار لا على طبقة التجار .
 وبهذا الصدد نقلت لي واقعة ، فقد حدث أن عجزت
 الحكومة عن تدبير مبلغ زهيد قدره خمسة الآف
 قرش فاضطرت ان تحصل عليه من خمسة تجار
 لقاء اوامر صادرة اليهم تجيز لهم الاعفاء من ضريبة
 الكمرك على بضائعهم حتى تسدد المبالغ المستدانة
 منهم . ان العدالة التي تتبعها الحكومة في هذا
 الشأن لها اثرها الملموس في كل مكان مما يشجع
 التجارة ويبعث على الطمأنينة والرضى في نفوس
 المنعنين بها .

وفي نفس الوقت فقد توسعت التجارة في
 البضائع الهندية اخيراً ، ولقد قيل ان التجارة مع
 بلاد فارس قد تدهورت الى حد كبير . وكانت
 بغداد ، حتى زمن قريب ، المخزن الرئيسي
 للمصنوعات والمنتجات الفارسية التي تحمل الى
 الاسواق السورية والارمنية والتركية ، ولقد وجد

الفرس طريقاً آمناً عبر أرضروم وثوقلت يفضى
 الى استانبول ، وأصبحت البضائع التي كانت تودع
 هنا تحمل رأساً الى العاصمة التركية فتؤتى بذلك
 ربحاً كبيراً للتجار الفرس وخسارة بعكس ذلك
 الربح لتجار بغداد .

ويلاحظ في هذه المدينة التقص الواضح في
 البروة بين جميع طبقات الناس ومما يسترعى

النظر عدم شيوع الالوان البراقة للبنات العسكرية
 المتخذة في مصر وفي بعض الولايات الكبيرة في
 الانبراطورية التركية . وظواهر الفقر بين الطبقات
 الفقيرة هنا توحى بالكآبة على التقص من الالوان
 البراقة الشائعة بين الطبقات الدنيا من الناس في
 دمشق والمدن المشابهة القائمة على الطريق .

ويشاهد في بغداد بعض الخيول الجيد في
 اصطبلات حرس الباشا ، ويستعمل بعض التجار
 الاثرياء افراساً تتراوح قيمة بعضها بين الالفين
 والثلاثة الآف قرش ، أي ما يوازي مائة وخمسين
 باوناً استرلينياً . ويجلب العرب احياناً الخيول
 الجيدة من الصحراء ، على ان من الصعوبة بمكان
 الحصول على الخيول الاصيله هنا كالتى ترى في بلاد
 نجد وهى مصدر عظيم لأحسن خيول العالم .

وتكثر هنا الجمال ذات السنام الواحد والجواميس
 ايضاً عديدة تعيش على طول شاطئ دجلة نظير
 ما يشاهد على شواطئ الكنج والنيل .

ولاحظت في بغداد وجود الثيران (Humped
 Bullock) الشائعة في الهند وتكثر في جنوب بلاد
 العرب عند سواحل بلاد اليمن ولكنها غير معروفة
 في مصر أو شمال بلاد الرافدين .

ومن الصفات المميزة لمدينة بغداد الحميم البيض
 المسرحة والملحمة لنقل الركاب من مكان الى آخر
 في المدينة ، ولا وجود للعربات . والحميم كبيرة
 نشيطة كالحميم المصرية وهى غالباً ما تخضب ببتع
 من الحناء لتجعل منها منظراً كالمشاهد الصامته
 المضحكة التي يقوم بها البهلوان الانكليزي ليميز
 نفسه ، وهذا النوع من الزينة لا يأتلف وكرامة مدينة
 اسلامية ذات هية .

٢١ تموز : - امضيت هذا اليوم في البيت
 لاستقبال المسيحيين ذوى المكانة المرموقة الباطنين
 هنا وغيرهم من الشخصيات العامة في ديوان مستر
 ريج .

ان القنصلتين الوحيدتين في بغداد هما الانكليزية
 والفرنسية ، والقنصلية الانكليزية تعين من قبل

شركة الهند الشرقية (East India Company) يرى ان الباشا يأخذ احياناً بمشورته دون
وتدفع لها مخصصات كبيرة وتتمتع بمركز لائق • المجلس
وقابليات كبيرة بفضل المستر ريج (١٤) •
وتتألف دار المقيم العام من جملة الغرف وهي
اكبر مساكن بغداد واحسنها وتتكون من ساحتين
كبيرتين تحيط بها غرف وقاعات وسطوح ينامون
فوقها وعدد من السراييب لاتقاء حر الصيف
الشديد خلال النهار وهنالك ايضاً اصطبلات
جيدة واسعة ومطابخ ومكاتب •

ويلحق بدار المستر ريج جراح انكليزي
وسكرتير ايطالي وجماعة من المترجمين والانكشارية
والسائسين كل يؤدي واجبه المستقل ، وهؤلاء
اخلاط من الترك والكرج والعرب والايروانيين
والهنود • وترابط جماعة من الجنود الهنود
(Sepoy) بطولهم وابواقهم • وكان يوجد
ايضاً عدد من الحياالة الاوربيين ، ولكن عددهم
اخذ في التناقص • ويرسو على الشاطيء يخت
كبير مريح بقيادة هندي للقيام بجولات في نهر
دجلة • وكل شيء في دار المندوب السامي يوحى
بالاحترام وينطق بالعظمة ويبعث في نفوس
السكان شعور الهيبة • وكان المستر ريج يعتبر
اقوى رجل في بغداد بعد الباشا ، وكان البعض

والقنصلية الفرنسية تتكون من المسيو فيكورو
(Vigorous) القنصل العام وهو رجل ذكي ،
دمت الاخلاق ، ومترجم شاب من حلب وبيت
بسيط وبعض الخدم • وكانت الكنيسة المسيحية
تحت الرعاية الفرنسية ويشغلها الاب الكرمل فنجنزا

(١٤) قضى هذا الرجل المأسوف عليه حقا
نحبه أثناء الهيضة التي اجتاحت الشرق خلال احدى
رحلاته الى ايران ، وبذلك وضع الموت حداً لحياة
لامعة متعددة الصفحات كان يؤمل منها الكثير •
ولعل لا اكون منصفاً ان اغفلت شهادتي الامينة
المتواضعة الى الصفات العالية لفضائله العسامة
واقبال تلك الشخصية الفذة بحماسة لا تقدر الى
العلم ، وأدبه الجم واخلاقه الدمثة الراقية ، وكرمه
الواسع ، كل ذلك جعل منه شخصاً محبباً الى
نفرس أولئك الذين سعدوا بصداقته أو بضيافته ،

Padre Vincenza وزميله Camillo Di Jesu
الذي غادر مؤخراً الى اوربا وكانت هذ الكنيسة
تضم مختلف العناصر المسيحية الباقية من روم
وسريان وكلدان ، لان كل طائفة منهم لم تكن
تضم ما يكفي من الاتباع لتأسيس كنيسة خاصة
بهم ، ولم ينتج عن محاولة ضم شملهم واتحادهم
سوى الاضطراب وسوء التفاهم •

وحالة الجو في هذه الفترة كما سجلها مقياسان حسنان للحرارة بعد الفحص والمقارنة الدقيقتين هي كالاتي : تبلغ أوطاً درجات الحرارة عند الفجر ١١٢° فهرنهايت وعند الظهر ١١٩° فهرنهايت وعند الغروب ١١٧° وفي منتصف الليل ١١٤° . هذه حالة الجو خلال الاربع والعشرين ساعة المنصرمة . وكان الهواء هادئاً والشمس حمراء قانية كأنك تراها خلال ضباب كثيف معتم وكان الجو ملتهباً وليس هنالك فرق كبير بين حرارة الليل والنهار طالما كان الشخص في الظل ، ولا يطاق البقاء تحت اشعة الشمس . وكثير من الناس لاقى حتفه من جراء الحرارة المتزايدة . والحياة بالنسبة الى الاوربي لا تحتل هنا لولا الراحة والملجأ المتوافرة في دار الممثل البريطاني . والجو في الشتاء بارد (لانها واقعة على خط عرض حتى عازمت ان ابعث اليك بكلمة عنه للنشر . »

٣٣ شمالاً) . وشهور الصيف الثلاثة حزينان ونموز وآب شديدة الحرارة حتى لتجعل من الاشخاص القاطنين والذين استوطنوا الهند مدة طويلة يتحسرون على المناطق الاكثر اعتدالاً في البنغال وهندستان .

وكما تظهر قراءات القياس مبلغ الحرارة الشديد للقارىء الانكليزي ، الا ان في بعض الفصول تبلغ درجات الحرارة اكثر من ذلك . وفي رسالة بعث بها الى المستر ريج اثناء اقامتي التالية في كلكتا مؤرخة في بغداد ٦ مايس ١٨٢٠ ، اعنى بعد اربع سنوات تقريباً من مروري ببغداد الى الهند يقول : « لقد كان صيفنا الماضي رديئاً فوق العادة ، يفوق كثيراً ما جربته هنا (بالرغم من ان ما عانيته انت ليس الا نموذجاً معتدلاً لجونا) حتى عازمت ان ابعث اليك بكلمة عنه للنشر . »